تطور من اللقف إلى الجرف. ولما كان من المستحيل أن نخلع الفعل عمن قام به (أو بلغة نحوية: الفعل عن فاعله)، فإن لفظة «مدها» لا تقل مركزية عن الفعل السابق عليها مباشرة. ولعل التسلسل الاجرائي أن يكون شديد النصوع: فبعد الجرف واللقف جاء الموج. إلا أن الوتيرة المستمرة لا تبلغ ذروتها هنا، بل هي تعبر عن ذاتها عند حال الاكتساح، وهو أشد من التماوج الذي قد يكون لطيفاً. وهنا، كذلك، ما يلبث «المد» أن يطل برأسه كقائم بعملية الاكتساح وحامل لها. وعند هذه النقطة، تنشطر الفقرة كلها شطيرتين تقفو ثانيتهما الاولى، ولكن دون أن يكون هنالك أي انقطاع بينهما. أما الشطيرة الاولى فتتسم بالحركية، وقد عبرت عن هذه السمة أفعال شديدة القدرة على التعبير عن الحراك، وأما الشطيرة الثانية فتتسم بالسكونية، وقد عبرت عن سمة السكون وجدانات ثابتة، وكذلك فعلان يدلان على السكينة والاستقرار دلالة تحديدية صارمة: «يقطن»، «يبقى».

بيد ان هذا التعارض بين الحركة والسكون في شطيرتي الفقرة لا يعني أن الصور ليست متنامية هنا، إذ ثمة صلات أُحادية الفحوى تستوطن الفقرة برمتها وتنظمها في نسق واحد. فهنالك ثلاث ظواهر ينطوي القسيم الأول عليها، ثم ما تلبث أن تتجلى هي نفسها في القسيم الثاني، وإن كان هذا التجلي يأخذ شكلاً جديداً: المد البشري، التماوج، البقاء على السطح بغير تماس. وبذلك يغدو كل من القسيمين تنويعة على مضمون واحد، أو بروزاً خاصاً لمعنى بعينه. أما الظاهرة الاولى فتتحول في القسيم الثاني إلى «وجوه..»، وأما الثانية فتظل على حالها «تموج»، وأما الثالثة، وأما «البقاء على السطح بغير تماس» فينتقل من الشاعرة إلى البشر أنفسهم، أي من الذات إلى خارجها. إنها مدينة اللاتواصل، أو المدينة المغلقة في وجه كل فرد حتى وإن يكن من سكانها. وتأتي عبارة: «هنا الاقتراب بغير اقتراب» كيما تنمي فكرة اللاتماس، أو حال القطيعة، نفسها، حتى لكأنها نسلت منها أو تناسخت عنها: الناس يتقاربون في المكان ولكنهم يبقون في منأى بعضهم عن بعضهم الآخر، فما من أحد يمس إلّاسطح الآخر، قشرته، لحاءه الخارجي اليابس. ومن قوة هذه العبارة نفسها ولد البيت الأخير في المقطع، لأن اللااقتراب يعني «اللاحضور»، وهذا الآخر يعني «حضور الغياب». والحقيقة أن المتناقضات في البيت الأخير تخدم إلى حد جِدٍّ بعيد فكرة اقتراب الناس بعضهم من بعضهم الآخر دون أن يتصل أحدهم بالآخر.

غير خاف، إذن، أن حراك الصور، في هذه الفقرة كلها، منحاه محكوم بمبدأ فحواه قيام كل صورة بخلق الاخرى وصوغها، الشيء الذي من شأنه أن يخلق احادية المقام، وفي الوقت نفسه تلوينه بشتيت الأصباغ الصانعة للفروق داخل الوحدة. وهذا مطلب عزيز على العقل يستسيغه أنّى التقاه أبداً. غير أن هذا النهج التصويري المتوالد ليس الظاهرة الأطغى على شعر فدوى طوقان. وبالبداهة، إن كل توالد صوري هو، في جوهره، خروج الثاني من الأول، بحيث تتشكل بينهما علاقة داخلية في المضمون، أو قل بحيث يلون أعماقهما صباغ واحد من شأنه أن يصنع وحدة الهوية. ولكن هذا شأن لا يطيقه العقل دوماً، إذ العقل مسكون بالشروخ بضرورة طبيعته.